

ترجمة

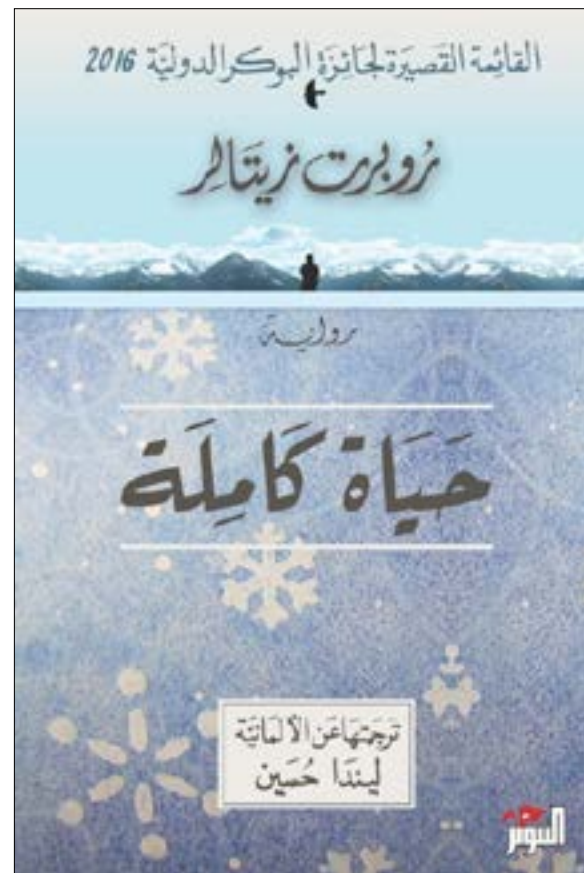
روبرت زيتالر: حين لا شفاء منه

يزن الحاج

كانت سنة 1983 تحمل مفاجأة صاعقة للمشهد الروائي العربي حين نُشرت في مجلة «الكرمل» فصول من رواية لا تزال إلى اليوم (وستبقى) علامة فارقة في الرواية العربية. تلك الرواية كانت «التيه»، أول أجزاء خماسية «مدن الملح» للمبدع الراحل عبد الرحمن منيف، من بين عشرات الأمكنة والشخصيات والأفكار المتداخلة العديدة في الملحمة، بقيت شخصية متعب الهذال في الذاكرة مع أنه اختفى منذ الثلث الأول من «التيه» ولم يعد بعدها. كان متعب الهذال هو الأمل في تغيير ما سيبقى عصياً على التغيير. كان الحلم المستحيل. كان صدى سنترده الصحراء على الدوام وهي تتألم من الفاجعة التي سيطرت عليها وغيّرتها كلياً. كان متعب الهذال كيخوته مدن الملح. وربما لم تكن تراجيدياه الفعلية هي النقط وتغيّر معالم المكان الذي يحملها في قلبه كوشم، بل في كونه وحيداً بلا سانتشو بانثا.

كان سانتشو سيضبط إيقاع هذا الصراع لأنه الشخصية الأصلح لذلك الزمن. كان سيرضخ لوحش الآلة من دون أن ينسحق أمامه. كان سيحاول التأقلم مع الوضع الجديد مع احتفائه بالشروط التي تبقيه مختلفاً في جحيم التماثل. كان سيبقى حياً على الأقل من دون أن يكون مجرد ضحية. كان سيعيش على الذكريات التي ستمثل نقطة قوته. كان، ببساطة، سيحاول التحول إلى صورة أخرى مع إبقائه على الجوهر ذاته. كان سيتحول إلى شخص آخر، باسم آخر، وسينتقل إلى مكان وزمان مختلفين. كان سيصبح شخصية

فكر

رواية
قصيرة،
ساحرة،
تؤكد
عظمة
الأدب
النمساوي

ذلك الصقيع الروسي يختلف كلياً عن صقيعه الحميم. هناك وصلت تراجيديا أندرياس إيغر إلى أقصاها، فبدأ ينقي الحنين داخله بحيث بات خبيراً به حين عاد إلى قريته، وعلمه للسياح.

عاش أندرياس إيغر حياته من دون أن يسمح لشيء أو شخص أن يكسره. وحدها الطبيعة كسرت حرمته من ماري بعدما انهار بيته في السيل الجليدي.

كان هذا البيت عش ماري وقبرها. ولأنه كان لماري وحدها، لم يُعد أندرياس بناءه وبقي يغيّر أماكن نومه بلا استقرار كأي سائح. ومع أنه بقي قوياً ظاهرياً، حيث لا تزال وقفته الراسخة هي ذاتها، إلا أنه أدرك أن الزمن قد هزمه أخيراً، وتركه مجرد شجرة متألّكة من الداخل، فانسحب ليمضي سنواته الأخيرة وحيداً. وهنا بدأ أندرياس الكلام، وكأن الصمت في الماضي كان وسيلته للنجاة، أو وسيلته لمقارعة الطبيعة، أما الآن فلم يبق إلا الكلام. صار مثل الجميع، يتحدث ويتحدث ويتحدث، حتى لو لم يكن يخاطب إلا نفسه.

رواية «حياة كاملة» هي أولى روايات زيتالر التي تُترجم إلى العربية، وهي أولى ترجمات ليندا حسين عن الألمانية. كانت الرواية قد وصلت إلى لحظات الصمت، حيث لا نسمع إلا التنفس، ولكنه يكفينا لنفهم ونعيش حياة تلك القرية الصقيعية وسكانها أساس كل علاقات أندرياس حتى مع حرب هتلر، وعودة أندرياس من صقيع روسيا التي عاش فيها أسيراً عدة سنوات، حيث قاسى أسوأ فترات حياته مع أنه يبدو للوهلة الأولى ضمن الطبيعة ذاتها.

رياح تهرّ شجرة وحيدة في الجبال. وحدها المرأة هي من تجلب الدفء إلى صقيع أندرياس. لكن الصمت هو أساس كل علاقات أندرياس حتى مع نساءه، إذ تعامل معهنّ كما يتعامل مع الجبال والوديان والرياح والليل. يتبادل معهنّ الصمت. وأيام بل سنوات الصمت في رواية زيتالر أهم من الكلام كله. زيتالر بارع في رسم

مختلفة في رواية أخرى. كان سيصبح أندرياس إيغر في رواية «حياة كاملة» للنمساوي روبرت زيتالر التي صدرت أخيراً بترجمة ليندا حسين عن «دار التنوير». كانت تلك هي المرة الأولى التي يتردّد فيها صدى الهدير العميق لمحركات الديزل في الوادي... ودّ إيغر لو يهتف مع إسكّان القرية، إلا أنه لسبب ما بقي جالساً على جذع شجرته. كان يشعر بالغم من دون أن يعرف لماذا. هكذا تبدأ تراجيديا القرية النمساوية في جبال الألب بعد دخول الشركات بالآتها لبناء سكة الحديد والتلفريك وتغيير معالم المنطقة بحيث لن تعود كما كانت. كان متعب الهذال سيحارب بعضاه وناقته، ولكن أندرياس إيغر أخذ وقته وهو يحاول استيعاب ما يحدث، وما لبث أن قرر الانضمام إلى الزمن الجديد، وهتف مع الهاتفين. لكنّه بقي مختلفاً عن الجميع. بدأ غربياً وكأنه لم يولد يوماً بين هؤلاء الناس، ولكنّه أدرك تماماً بأن هناك ما لم ولن يتغيّر: جوهر الطبيعة. لذا بقي يؤدّي عمله كأي عامل آخر، كأي رقم آخر، ولكن حياته الفعلية تبدأ حين ينتهي العمل.

حين يعود إلى الأرض والجبال بلا آلات. حين يتلاشى صوت هدير الديزل وتعاود الجبال تنفّسها، فيتنفّس إيغر منها وفيها.

تتمدّ رواية «حياة كاملة» على طول تسعة وسبعين سناً هي مسيرة حياة أندرياس إيغر. بداها وحيداً وانهاها وحيداً، وبقي بينهما وحيداً تقريباً. لم يقطع وحدته إلا ثلاث نساء: جدّته التي ماتت وهو صغير، وماري زوجته، وأنا هولر التي أدفّته ليلة واحدة، بينما كان كل من تبقى، حتى أعز زملائه في العمل أو السجن، محطات عابرة مثل

الآن. حين يتلاشى صوت هدير الديزل وتعاود الجبال تنفّسها، فيتنفّس إيغر منها وفيها.

تتمدّ رواية «حياة كاملة» على طول تسعة وسبعين سناً هي مسيرة حياة أندرياس إيغر. بداها وحيداً وانهاها وحيداً، وبقي بينهما وحيداً تقريباً. لم يقطع وحدته إلا ثلاث نساء: جدّته التي ماتت وهو صغير، وماري زوجته، وأنا هولر التي أدفّته ليلة واحدة، بينما كان كل من تبقى، حتى أعز زملائه في العمل أو السجن، محطات عابرة مثل

طارق محمد شحرور... تطبيقات على المنهج

حسن نصر

في المنهج، لا تضيف دراسة طارق محمد شحرور «عن الروح والنفس والمعرفة في التنزيل الحكيم: قراءة معاصرة» (دار الساقى) مسائل جوهرية إلى نظرية أبيه محمد شحرور (مواليد دمشق، 1938) في قراءة القرآن. على أن الإضافة في الدراسة الجديدة، موضوع المقال، تتأتى من تطبيقات على تلك النظرية. تطبيقات تؤدي إلى خلاصات تتصل بمحاولة تصويب بعض المغالطات المعرفية الحدائثة عن النفس الإنسانية في شقها المعرفي. والمعيار هو قراءة معاصرة للقرآن.

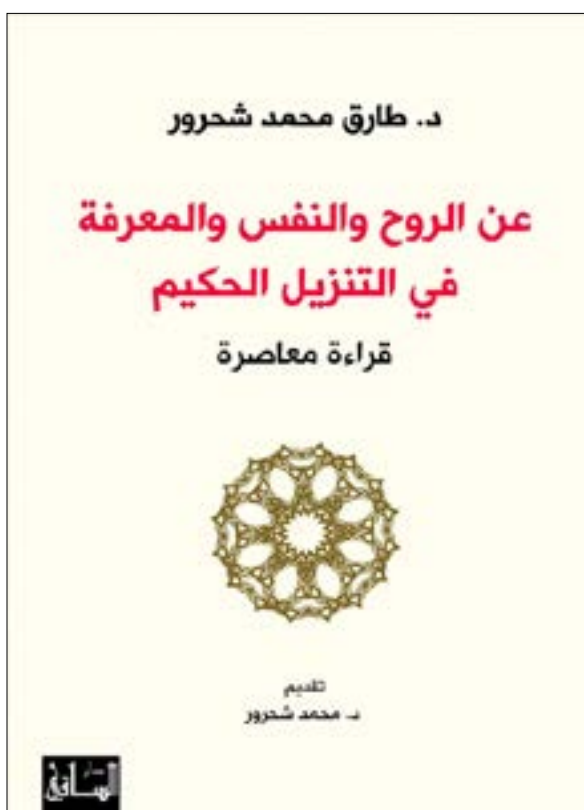
تتمحور المنهجية، أساساً، كما صار شائعاً، على مسألة نفي الترادف اللغوي في مفردات التنزيل الحكيم. ثيمة غفل عنها معظم المفسرين التراثيين. نفي الترادف هو مدخل جوهرى لوضع الآيات في نصابها المفاهيمي لناحية بناء تصور شامل ومعقول عن الإنسان ومداركه المعرفية. تصور يلائم الحقيقة القرآنية الشاملة ويصحّح بعض الشوائب في ضوء الحقبة العلمية المعاصرة.

ربطاً باختصاص المؤلف الأكاديمي في الطب النفسي، تحاول هذه التطبيقات فكّ التباسات في فهم النفس الإنسانية وطرائق إدراكها المعرفي بالإحالة إلى التصور القرآني. تصور يقيم الإنسان كنقطة الاقتران الأهم (قرآن) بين الطبيعة والوحي المنزل. الطبيعة بما هي ميكانيزمات خارجية يدركها الإنسان حسياً بالسمع

والإبصار، ومن ثمّ يقوم بترجمتها أو فكّ تشفيراتها عبر الفؤاد (السمع والأبصار والأقنثة) إلى تجريدات متواضع عليها. التجريدات هي من نتاج نفخة الروح التي انماز بها العاقل عن غير العاقل، ذلك من جهة. والوحي المنزل أو التنزيل الحكيم، من جهة أخرى، بما هو حقيقة كلية تلائم أحوال الإنسان كافة وتطابق العلم الإلهي بالأشياء والمسائل في ذاتها.

في ضوء هذه القراءة، يصير بإمكان السردية القرآنية أو التنزيلية استيعاب معظم ما تظهره النظريات الحديثة المتعلقة بالمعرفة الإنسانية (نظرية المعرفة) أو بالمبول العميقة للكائن وتقسيماتها التي تؤسس لدوافع الإنسان. فالنص مكتمل في علم الله الكامل وليس على البشر سوى إعادة قراءته أو تفكيكه لرفع أي تناقض ظاهري مفترض قد تنتجها الحقبة المعاصرة. ننحدث إذن عن حركية للمعنى. حركية هي في ذاتها مصدر الإعجاز.

تعيد هذه القراءة تفسير القرآن بما يشبه إزاحة معظم التفسيرات التراثية، لأنها قراءة تستوعب كل مادة العلم في سياق مرتب ومقلّم جديد. فمثلاً لا حصراً، لا يعني لفظ «السوء» الوارد ذكره في آيات خروج وهبوط آدم وحواء من الجنة «العورة» أو الأعضاء التناسلية البشرية بحسب التراثيين. السوء، هنا، تعني الموت. الموت أو إدراك حتمية الموت هو السوء التي داراها الله عن آدم وحواء. وإذ أكل من ثمر الشجرة بإغواء من الشيطان بفكرة

تصويب
مغالطات
معرفية
عن النفس
الإنسانية

جدلاً». هنا، يصير من الممكن إعادة ترتيب السياقات الخلفية للإنسان في إطار يزيل أي تناقض مفترض بين كشوفات علمية حديثة وقراءات تراثية معينة. فالكائن البشري، قد وجد في مرحلة أولى وجوداً فيزيائياً على الأرض، ثم حدثت نفخة الروح، وهي بثّ القدرة فيه على التجريد عبر تعلم الأسماء، ومن ثم احتاج تأهياً خاصاً من الله في الجنة ثم مرحلة الاعتماد على النفس.

نظرياً، تكاد نظرية محمد شحرور تكون ناجزة. في المقابل، ومن وجهة تطبيقاتية، يبقى النض القرآني باباً مفتوحاً للفهم وإمكان تفكيك تلك الترادفات اللغوية في سبيل تشكيل أرضية مفهومية تستوعب ما يمكن أن يجد على صعيد المعرفة (قراءة طارق محمد شحرور). على أن قراءة مماثلة تظل واقعة في معضلة الرؤية إلى النص على نحو بطمس، بقدر، فكرة أساسية في كونه، أصلاً، نصاً لغوياً جمالياً ذا شخصيات تأويلية عالية. نض لا يركن لتفسيرات وحساسيات ناجزة في نفس المرید. وهي قراءة قد تضرر خطاباً سكونياً ميكانيكياً لناحية الاطمئنان الكامل لكونه نصاً ذا طبقة واحدة قد ألمّ بالحقائق العلمية في كل عصر، ويكفي فك شيفرة اللغة للكشف عنها. إنها معضلة الغفلة عن كون القرآن نصاً مركباً من مستويات تأويلية شعورية متعددة ومتداخلة لا يمكن حصرها أفقياً عبر فك لعبة الترادف اللغوي، فقط في سبيل ردم الفجوة الحضارية مع حداثة أو ما بعد حداثة مفترضة.

وهو لازم في تشكل قسم اللاوعي عند الإنسان في مرحلة التكليف. طبيعة الحال، يمكن ربط هكذا قراءة بأحوال ومراتب النفس وتحقيقاتها من مرحلة بدائية ليس فيها جدل. بحسب شحرور - وصولاً إلى حقبة التعامل بالجدل والتكليف في حقبة النص المكتمل «وكان الإنسان أكثر شيء

الخلود، فإن حتمية الموت قد كشفت لهما. فالهبوط هو استقلال نسبي عن رعاية الله الكاملة، أمّا الخروج من الجنة فهو التكليف. في سياق كهذا، يمكن فهم مصطلح كالنبايس «يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم (...)» بأنه نكران الموت الذي يحصل، جدلاً بين الإنسان ونفسه.